بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله وأمينه على وحيه ومبلغ الناس شرعه؛ فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد : معاشر المؤمنين عباد الله : اتقوا الله ، فإن من اتقى الله وقاه وأرشده إلى خير أمور دينه و دنياه.

عباد الله : في القرآن الكريم – كما نعلم جميعاً – سورة يقال لها سورة لقمان، في هذه السورة ذكر الله ﷻ خبر عبد من عباده الصالحين وولي من أولياءه المتقين ، آتاه الله الحكمة ومنَّ عليه بالبصيرة ووفقه لسديد القول ورشيد العمل : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

عباد الله : إنه رجلٌ صالح وولي من أولياء الله وحكيمٌ من الحكماء وهبه الله ﷻ الحكمة لأنه كان صادقاً مع الله في أقواله وأعماله جاداً في التقرب إلى الله ﷻ بزاكي الطاعات وجميل العبادات ، كان قليل الكلام كثير الفكرة والتدبر ، منَّ الله عليه بالحكمة ووهبه إياها ، وإن من عظيم مكانة هذا العبد ورفيع شأنه أن الله ﷻ ذكر لنا في القرآن خبره وأنبأنا عن وصيته لابنه وموعظته لولده وفلذة كبده ؛ وهي – عباد الله – وصية نوَّه الله ﷻ بها في القرآن الكريم وذكر ألفاظ تلك الوصية عن لقمان الحكيم لتكون للآباء والمعلمين والمربين نبراساً وأنموذجاً يحتذون حذوه ويسيرون على نهجه ، ولهذا – عباد الله – كان متأكداً على كل أم وعلى كل أب وعلى كل معلِّم ومربي أن يقف أمام هذه الوصية متأملاً ومتدبرا ليأخذ منها الوصايا النافعة والأساليب الناجحة والطرق المفيدة في تربية الأبناء وتعليم النشء ، أليس الله ﷻ ذكر لنا موعظة لقمان لابنه في كتابه العزيز!! ذكرها لنا ﷻ ليس فقط لتكون خبراً نعلمه أو معلومةً نُفيدها؛ وإنما ذكر الله ﷻ ذلك ليكون منهجاً سديدا ومسلكاً رشيدا يسلكه الآباء والمربون والمعلمون.

إذ المسؤولية في التربية عظيمة والواجب جد كبير يتطلب نصحاً وعلماً وفهماً وبصيرة، ولهذا – عباد الله –كان من الجدير بكل أب وبكل أم وبكل معلم ومربي أن يقف أمام هذه الوصية ينهل من معينها ويتزود من حِكمها ودلالتها لتكون تربيته لأبنائه وللنشء عن بصيرة وعن حكمة وعن دراية بدين الله ﷻ. ولقد كانت وصية لقمان الحكيم لابنه موعظةً رقيقة وكلماتٍ متدفقة وألفاظٍ عذبة ووصايا سديدة، جاءت بأسلوب الواعظ الناصح المشفق المربي يقول الله ﷻ : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان:١٣]. والوعظ – عباد الله –: أمر بالخير أو نهي عن الشر مع ترغيب وترهيب ، وهكذا جاءت وصية لقمان الحكيم موعظة لابنه يناديه نداء الحنان والعطف والشفقة بعيداً عن الغلظة والشدة والعنف والقسوة ، يكرر مع ابنه الخطاب بـــ ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ يرددها عليه مرات وكرات يفتح بها قلبه ويستدعي بها أحاسيسه ومشاعره ويهيئه لحسن الاستفادة وكمال الانتفاع.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ ؛وهنا معاشر الآباء ومعاشر الأمهات ومعاشر المعلمين والمربين يجب أن ندرك من هذه الوصية العظيمة الرائعة أن أهم ما يربى عليه النشء وتربى عليه الأجيال المحافظة على العقيدة والمحافظة على التوحيد والبعد عن الإشراك بالله ﷻ؛ فإن هذا أهم المهمات وأعظم المقاصد وأجل الغايات وهو الأساس الذي يبنى عليه الدين وتقام عليه الملة، ولهذا بدأ أول ما بدأ لقمان الحكيم في موعظته لابنه بنهيه عن الإشراك بالله ﷻ قال: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ﴾ أي: بكل صوره وجميع أنواعه فلا تجعل مع الله شريكا في الملك والخلق والرزق والإنعام ، ولا تجعل مع الله شريكا في أسماء الرب الحسنى وصفاته العظيمة ، ولا تجعل مع الله شريكا في العبادة التي خلقك الله لأجلها وأوجدك لتحقيقها ، وبين لقمان لابنه أن الشرك ظلم عظيم ؛ فهو أظلم الظلم وأكبر الجرم وأعظم الآثام – عباد الله –، وأي ظلم أشنع وأي جرم أفظع من أن تصرف العبادة لغير الخالق العظيم والرب الجليل سبحانه وتعالى !!.

ولما كان – عباد الله – مقام الأبوين عظيما ومترلتهم رفيعة أوصى الله ﷻ – في أثناء ذكره لوصية لقمان– بالأبوين براً وإحسانا ورعايةً وإكراما فقال جل من قائل :

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٤-١٥]؛ وهي وصية – عباد الله – جديرة بالعناية والانتباه والتحقيق والتطبيق ، وصية الرب ﷻ بالوالدين وقرن حقهما بحقه سبحانه وشكرهما بشكره سبحانه مما يدل على عظيم المكانة وكبير المسؤولية.

عباد الله : وتأملوا على وجه الخصوص حق الأم لعظم تعبها وكبر نصبها وعظم جهودها في تربية أبنائها ولهذا خُصَّت بالذكر، قال ﷻ : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾؛ عاشت الأم في تربية الابن أتعاباً متواصلة وأوجاعاً متلاحقة وهموماً متتابعة وهناً على وهن وضعفاً على ضعف وتعباً على تعب ، أمومة وحمل ورضاعة وملاحظة ورعاية كل ذلك بذلته الأم نحو ابنها ، ولهذا – عباد الله – إذا أراد الإنسان أن يكون باراً بأمه تمام البر فعليه أن يتذكر جميلها السابق وإحسانها المتلاحق ،كم قدمت الأم لابنها من بر وإحسان ورعاية وإكرام ؛ حمل ورضاعة ، جد واجتهاد ، سهر وتعب ، حب ورعاية ، كل ذلك بذلته الأم وهي محبة لوليدها مشفقة عليه تمام الشفقة ، فإذا رعى الابن ذلك ولاحظه أعانه ذلك على برها وأعانه على القيام بحقوقها ولاسيما إذا تذكر مع ذلك أنه سيقف يوماً أمام الله وأن الله ﷻ سيسأله عن قيامه بحقوق أبويه ، ولهذا ختم الله ﷻ هذه الآية بقوله: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي إلى الله ﷻ المرجع والمآل فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وتأمل أيها الابن وصية الله هنا فيما لو كان الأبوان أو أحدهما مشركاً – والعياذ بالله – يقول الله ﷻ : ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي أبواك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ و مثل هذا مجاهدة الأبوين للابن على معصية الله والفسق والفجور ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولم يقل ﷻ فعُقَّهما ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ، عباد الله : إذا كانت المصاحبة للأبوين بالمعروف مطالَبٌ بها في مثل هذه الحال فكيف إذا كان الأبوان من أهل الصلاة والعبادة والإيمان والبر والإحسان !! لا شك أن المقام أعظم والشأن أجل وأرفع .

عباد الله : ومن جميل وصية لقمان لابنه ووعظه لفلذة كبده أن ربطه بالصلة بالله ومراقبة الله ﷻ في السر والعلن وأخبر ابنه أن الله ﷻ أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، وأن الخطيئة والمظلمة مهما اجتهد المخطئ الظالم في إخفائها فإن الله ﷻ يأتي بها وتكون حاضرةً يوم القيامة ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾ [لقمان:١٦]؛ وهذه عباد الله لفتة كريمة للآباء والمربين في زجر الأبناء وتخويفهم أن يكون التخويف بالله والدعوة لمراقبة الله واستحضار علمه واطلاعه جل شأنه وعظُم سلطانه سبحانه.

ومن وصايا لقمان التي ذكر الله ﷻ : أمره لابنه بالصلاة والمحافظة على أركانها وواجباتها ، ودعوته لابنه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رجاء أن يفيد الآخرين وليكون له ذلك حصناً حصينا من دعاة الشر ودعاة الرذيلة والباطل، وأوصاه مع هذا كله بالصبر وملازمة الصبر على ما يناله من أذى ، وأخبره أن ذلك من عزم الأمور ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾ [لقمان:١٧] ، ثم ختم وصاياه النافعة وتوجيهاته المباركة السديدة بدعوة ابنه لرعاية مكارم الأخلاق وجميل الآداب ورفيعها والبُعد عن سفساف الأخلاق ورديئها فقال في وصيته لابنه ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾ [لقمان:١٨-١٩] ، ما أجملها عباد الله من وصية عظيمة وما أروعها من موعظة بليغة يجب علينا أن نقف عندها متأملين متدبرين وأن نأخذ منها نهجا سديدا ومسلكا رشيدا لتربية الأبناء والنشء . أسأل الله ﷻ أن يرزقنا أجمعين البصيرة في دينه واتباع نهج الصالحين من عباده وأن يصلح أبناءنا وبناتنا وأن يوفقنا لكل خير إنه سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الخطبة الثانية:

الحمد لله عظيم الإحسان واسع الفضل والجود والامتنان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

عباد الله : وإن مما يستفاد من هذه الوصية – وفوائدها لا حصر لها لكثرتها – إن مما يستفاد من هذه الوصية العظيمة عظم حق الأم وأنها أوْلى الناس بحسن العشرة و المصاحبة، وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال : « يا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قَالَ أُمُّكَ، قَالَ ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ أَبُوكَ »؛ فذكر الأم ثلاث مرات وذكر الأب في المرة الرابعة ، وهذا – عباد الله – يدل على أن حق الأم أعظم ومكانتها أرفع وأجل وأنها أولى الناس وأحقهم بحسن المصاحبة. وهذه المراتب الثلاثة التي ذكر النبي ﷺ للأم في حسن المصاحبة في هذا الحديث الذي سمعناه قد جاءت الإشارة إليها في الوصية التي ذكر الله ﷻ في أثناء وصية لقمان، وتأملوا ذلك – رعاكم الله – في قوله ﷻ : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ ﴾ فذكر في شأن الأم مراتب ثلاثة ألا وهي:

– الأمومة وما تحمله هذه الكلمة من معنى ودلالة.

– والحمل وما يلتحق به من أتعاب وأوجاع.

– والرضاعة وما يلحق الأم بسببها من ضعف وجهد وشدة.

فذكر الله ﷻ ثلاث مراتب : الأمومة، والحمل، والرضاعة، وكلها من خصوصيات الأم وكلها جميل وإحسان من الأم يتطلب من الابن أن يحفظ الجميل وأن يرد صنائع المعروف وأن يجزي الإحسان بالإحسان، فما أعظم حق الأم وما أكبر قدرها. ونسأل الله ﷻ أن يوفقنا للبر بآبائنا وأمهاتنا، وأن يوفقنا لحسن مصاحبتهم بالمعروف، وأن يعيننا على ذلك فإنه ولي التوفيق والسداد. وصلوا وسلموا رعاكم الله على محمد بن عبد الله كما أمركم الله بذلك في كتابه فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ ﴾ [الأحزاب:٥٦]،وقال ﷺ: « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا » ، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد..

(من خطبة جمعة : ١/٢/١٤٢٦هـ)

سلسلة قصص القرآن

وصايا لقمان الحكيم لابنه

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر